دكتور حميد ...

قصة بقلم حسن بكر

- ١ -

كان الشارع العريض ذو البنايات الضخمة الشاهقة التي تحف به قد غسلته سحابة صيف ، أو زخة طل ثقيلة ، حينما خرج من دار السينما . ذلك انه لمع تحت أضواء الاعلانات الصارخة التي تفنن الكهربائيون في صنعها وتصميمها . فهذا ضوء عملاق ثابت ، وذلك يضيء وينطفيء ثم يضيء من جديد .. وثالث يدور .. ورابع .. وخامس ... دوامة - لا بل خضم - من الاضواء . وبالرغم من كل هذه الحركة الدائبة ، كاد هذا الجزء من الشارع يكون خاليا تماما ، فكأنما أخلي خصيصا لهما ، اللهم الا من كلب ضال ، راح يشم الرصيف مسرعا من أمامها .. ثم ما لبث ان اختفى هو الاخر ، في أحد المنعطفات .

سارا ساهمين ، يتردد في آذانهما وقع خطاهما الرتيبة . ولم يكن صمتهما ، في الواقع - كما يحدث عند خروج الناس من دور السينما أحيانا - بسبب التفكير في حوادث الفيلم ومغزاه ، بل كان كل منهما يفكر فيما قاله الاخر له ، قبل دخولهما السينما بساعات .

قالت زينب فجأة :

- انك لم تذكر لي يا أحمد تفاصيل حادثة « العم عثمان » .. ماذا حدث بالضبط ؟

بقي صامتا للحظة قبل ان يجيب :

- أظن انك لا تعرفين « العم عثمان » .. هه ؟

- ما تزال صورة مهزوزة له عالقة في ذهني منذ الطفولة ، فقد كان يأتي ليسوق أغنامنا مع باقي الشلية التي كان يرعاها .

قال احمد :

- بعد ان نفقت غالبية المواشي التي كان يرعاها ، من جراء الوباء الذي اجتاحها ، في تلك السنة المشؤومة ، وجد « العم عثمان » نفسه بلا عمل . ليس هذا صحيحا تماما ، على كل حال . الواقع انه عمل هنا وهناك ، في حقول القرية . سوى ان جسمه النحيل لم يقو على تحمل تلك المشقة ، فقد كان عجوزا ، كما تذكرين . لهذا ، عرض على وكيل الباشا ان يؤجره قطعة صغيرة من الارض .. مؤملا المسكين أن تفل عليه ما يقيم أوده به ، ويغنيه عن التسول لدى الاخرين ان يصحبوه الى « حقولهم » للعمل ، مقابل اجر زهيد لا يسمن ولا يغني من جوع . ولكنه لم يفلح في اقناع الوكيل بأن يتقاسم الباشا غلة الارض - على قلتها - معه . اذ أصر ...

وهنا احتقن وجه أحمد ، وعض على ناجذيه :

- أصر الوغد على أن يدفع أجر الارض بكامله نقدا ، في نهاية الموسم ، قائلا بتبرم : « كلكم تأتونني بنفس المنطق !.. هذه هي أوامر الباشا .. وهو حر في أرضه ، يستغلها كيف يشاء » !!

***

قال بعد برهة :

- لقد حرث المسكين قطعة الارض على حماره الذي نجا من كارثة الوباء . ولكن شاء ربك ان يزيد الطين بلة ، فامحلت الارض ، وقحط الموسم ، وانهارت احلام « العم عثمان » . مسكين .. لم يرحم الجلادون شيخوخته ، لا ولا فقر وضنك باقي المستأجرين ، على ذلك ، الذين اكرهوا - ومعهم « العم عثمان » - على دفع اجور الاراضي المستحقة عليهم عدا ونقدا ، في حينها ، أو أمضاء عقود استئجار جديدة، بشروط ما أنزل الله بها من سلطان . أما من لم يستطع الى تلك الشروط الباغية سبيلا ، مثل « العم عثمان » ، فقد استولى الباشا على سقيفته ومتاعها البائس ، وأرغمه على بيع حماره الذي كان يخفف عنه عناء المشي في تنقلاته . وذات ليلة ، اختفى من القرية ، ولم يره ، منذئذ ، أو يسمع عنه احد شيئا .

اكتسى محياه بمسحة من الاسى والالم . استطرد قائلا :

- لعله الان يعيش على صدقات المحسنين ، اذا كان ما يزال بعد على قيد الحياة ، بعد كل تلك السنين الطويلة .. والباشا وزبانيته - بعد كل شيء - أحرار في استغلال الارض كيف يشاءون !

اخفت مسحة الالم ، من وجهه ، وانفرجت أساريره ، حينما وصل الى هذه النقطة من حديثه :

- ولكن العناية الالهية أبت الا ان تنتقم له ولامثاله . فقد قلمت الثورة أظافر المستغلين ، وقضت على الاستغلال البشع قضاء مبرما.. ورد الاصلاح الزراعي للفلاحين كرامتهم الانسانية .. وجاءت - اخيرا - المراسيم الاشتراكية لتكمل الصورة المشرقة ، وتنصف العمال من مستغليهم ، بحمايتها حقوقهم المشروعة في أتعابهم . ان المستقبل مشرق، بلا شك ، يا زينب . الطريق وعرة وشاقة ، بلا شك . والذين يحسبون - بل ويطالبون - أن الوحدة ستفرشها لهم بالورود ، بين عشية وضحاها ، محطئون . واني أعتبرهم ألد أعداء الثورة والوحدة ، لانهم بورجوازيون ، لا تهمهم غير مصالحهم الشخصية . حتى هذه لا يريدون ان يعملوا لها ، بل ينتظرون من الاخرين ان يقدموها لهم على آنية من ذهب .

وعاد يكرر قوله :

- المستقبل مشرق ، بالتأكيد . أن تكاتف ايدي كافة القوى العاملة وتعاضدها ، لحماية مكاسبها وتطويرها ، كفيل بتحقيق أماني أمتنا في الحرية ، والعدالة الاجتماعية ، والوحدة الكبرى المنشودة ، لا سيما بعد ان يحطم اخواننا قلاع الرجعية والعمالة في اجزاء الوطن الاخرى ، وينضم ركبهم الظافر الى ركبنا ...

تنهد الان بارتياح ، وبعد بضع خطوات ، قال :

- ما اجمل ان يعيش المرء في هذه الايام بالذات ، الحبلى باحتمالات الخير والسعادة للجميع . لقد آليت على نفسي أن أعمل وأعمل وأعمل ، لاكون جديراً بثورتي ووحدتي وقوميتي ، لانها كلها بحاجة الى عمل متواصل .

كل هذا دون أن تنبس زينب ببنت شفة . سألها فجأة :

- أظن اني لم أقل لك اني قررت دراسة الطب البيطري ، ان حصلت على منحة دراسية ، منذ ان كنت في المرحلة الابتدائية ، حينما وقعت القرية مأساة المواشي ؟

أجابت ، بامتعاض :

- لا !

عاد الصمت فخيم عليهما من جديد .

لم يفطن احمد الى لهجته الحادة التي كادت تكون خطابية .. ذلك انه سرعان ما ينفعل ، كلما تذكر الماضي ببشاعته وظلمه المقيت . بل انه نسي - الى حد ما - ان زينب ابنة مختار قريته ، المقرب الى

الباشا وحليفه ، بحكم تشابك مصالحهما ، مذ انه كان حلقة الوصل بين وكيل الباشا والفلاحين .

ودعها على عتبة باب عمتها – حيث تقيم – وقفل عائدا الى حجرته الصغيرة ، في الشارع المجاور .

استلقى على سريره ، دون ان يخلع شيئا من ملابسه .. وراح يحلم بالساعة التي يعود فيها الى مغاني صباه .. الى القرية ، وامه الحنون . وهنا ، غالب الدمع الذي اغرورقت به عيناه . قال بصوت مسموع ، متنهدا :

– بعد غد تظهر نتائج الامتحانات ، يا ام احمد .. بعد غد اعود اليك لارعاك بعيوني ، ولارد لك بعضا من جميلك علي ...

(٢)

كانت أم احمد – هكذا نوديت في القرية كلها – خادمة بيت المختار . فقد اضطرت ، تحت وطأة الفقر المدقع ، ان تؤدي هذا العمل الذي يعتبر في الريف عملا وضيعا . فلم يكن بوسعها ، وهي العجوز الهرمة ، ان تعمل في الحقول ، مثل معظم النساء في الارياف . ومن أجرها الزهيد ، ادخرت القروش اللازمة لالحاق ابنها في المدرسة الابتدائية ، ثم بثانوية البلدة المجاورة ، حيث اعتاد احمد ان يقطع المسافة بينهما ، غاديا ورائحا ، مشيا على قدميه . فلم تكن – انذاك – تصل بين القرية والبلدة ، هذه الطريق المعبدة ، التي عملت على شقها – مؤخرا – وزارة الاصلاح الزراعي ، التي أسست في البلدة ، جمعية تعاونية ، مما اقتضى انشاء شبكة من الطرق ، الى القرى المجاورة المستفيدة من جهود الجمعية ، وكذلك حتى تصل اليها ، بسهولة ، المعدات الزراعية الحديثة ، وغيرها من لوازم تطوير الزراعة .. ولمساعدة الفلاحين ، من جهة اخرى ، على نقل منتجاتهم الى مركز الجمعية ، حيث كانت تباع بأسعار معقولة .

وحتى بعد حصوله على المنحة الدراسية ، اثر تفوقه في امتحانات المرحلة الثانوية – ولولا ذلك لما حلم بها ، ذلك ان العلم في تلك العهود المظلمة ، كان مقصورا على ابناء الطبقة الفقيرة – بقي احمد ، لفترة طويلة ، قبل ان تزيد وزارة التربية والتعليم ، بعد الوحدة ، قيمة المنحة الدراسية بنسبة معقولة ، تكفل للطالب حياة دراسية لائقة ، يتسلم من امه ، بين الحين والاخر ، بعض الليرات التي كان المختار يتكرم ويتعطف بتحويلها له ، نيابة عنها ، كلما ارسل نقودا لابنته زينب ، التي كان قد ارسلها ، منذ نعومة اظافرها ، الى العاصمة ، للالتحاق بالمدرسة الخصوصية ، التي يدرس فيها ابن الباشا ، رشاد بك ، مؤملا في سره ، ان يغرم هذا بها ، بعد ان تشب عن الطوق ، وتتلقى « تعليما مناسبا » كالذي يحرص الباشا دائما على التشدق – لا سيما بحضور المختار واكبر ابنائه ، وكانا أميين – بأنه يوفره لابنه .

كان هذا التفاخر ، فضلا عن اشمئزاز وتهكم الباشا على الفلاحين وحياتهم «المزرية» ، هو الذي حفز المختار على ابقاء ابنته ، طيلة الوقت ، عند عمتها في دمشق ، خشية ان تتلوث بقاذورات تلك الحياة الريفية التي يأنفها الباشا ، مما سيجعلها غير جديرة بابنه... فلم تزر القرية الا لماما ، ولفترات قصيرة جدا ، كان ابوها خلالها ، كالببغاء ، وبالكلمات نفسها ، يبدي تقززه المكتسب من الباشا ، من تلك الحياة ، واولئك الناس ، حتى ليحسب السامع انه ليس واحدا منهم .. ثم يستفسر ، بلهفة لم يستطع كتمانها ، عن معاملة رشاد بك لها في المدرسة .. فكانت تجيب – من قبيل الكبرياء النسائية – بأنه لطيف معها . اذ عز عليها أن تعترف بأنه يحتقرها ، ويصفها امام باقي الطلبة ، بالفلاحة .

كانت كلماتها المطمئنة تثلج صدر ابيها الذي جمحت به احلامه في الاونة الاخيرة ، بعد ان كعبت زينب وأينع عودها .. فرآها سيدة ذلك القصر الرخامي بدمشق ، ورأى نفسه – وابنه من بعده – ليس فقط سيد القرية وحدها ، بل وايضا كل المنطقة التي يملك الباشا معظم اراضيها .

***

خلصت زينب خصلات شعرها السوداء من الدبابيس ، فتهدلت ، طويلة ، على كتفيها .. وراحت تتأمل ، في المرآة ، مفاتنها التي شف عنها قميص نومها الازرق ... بينما جال في خاطرها الحوار الذي داربينهما قبل دخول السينما . انها لم تعر – في الواقع – آراءه السياسية أهمية كبيرة ، لانها – مثلما تعودت أن تقول له – لا تفهم في السياسة . فسيان عندها أتحققت وحدة الاقطار العربية ، أم كرس انفصالها الى الابد . لقد قررت انها لن تفهم في السياسة وكفى ، فلن يزحزحها اصراره :

– ان على كل مثقف عربي ، بل على كل مواطن ، ان يحدد موقفه بوضوح . فالامر لا يحتاج الى تفكير ، ذلك ان ليس فيه لبس أو غموض . انه في غاية البساطة : تأييد صريح للثورة وكل ما تمثله ، وتسعى الى تحقيقه ، أو ولاء للانظمة العتيقة البالية وكل ما تمثله . وليس هنالك حل وسط ، خصوصا وان المسألة مسألة حياة ومصير ..

صدرت عنها آنة ضيق :

– أف ...

ولكنها أسرعت لتكتم غيظها ، محاولة ان تنصفه ، فقالت لنفسها :

– يجب ألا أنكر انه خلوق ، ويكاد يكون الوحيد هنا الذي يعاملني معاملة لا تخلو من الرقة . بيد ان ما لا يعجبني فيه ، بصفة خاصة ، هو هذا الاصرار العجيب من جانبه ، على تحويل كل موضوع الى السياسة . أسأله عن « العم عثمان » ، فينتهي الى السياسة .. أبدي اعجابي بصالة الانتظار بدار السينما ، وأثاثها الفاخر ، فيسألني ان كان من العدل في شيء ، أن يتمتع سكان المدن بكل هذه الخيرات ، ووسائل الرفاهية ، بينما المحرومون من أهالي القرى يكدحون ، ليل نهار ، دون ان يحصلوا على ما يحفظ عليهم ماء وجوههم وكرامتهم الانسانية – على حد قوله – ثم يبدأ في لعن الحكومات السابقة ، ووصمها بالرجعية ، لانها – كما يزعم – أهملت الريف .. وبالتغني بفضائل الوحدة ، وما حققته للعمال والفلاحين ...

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
اعطنا حبا	» »	٢٥٠
مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠

وما ان وصلت في تفكيرها الى هـــذا الحد ، حتى كانت موجة الحنق قد استبدت بها . تنهدت ، قائلة بسخرية مشوبة بالغيظ :

ـ وهكذا، ينتهي بنا المطاف الىالسياسة. أود أن أحدثه عما سمعته من الزميلات اللائي زرن لندن وباريس ، عن التقـــدم العلمي هناك ، فيسرع الى الاستنجاد بابن سينا وغيره مدعيا ان الحضارة الاوروبية مدينة بالفضل لما قدمته الحضارة العربية لها !.. فاذا ذكرت شيئـا عن حياة الانكليز والفرنسيين الراقية ــ كما سمعت مـن الزميلات ــ أجابني ، مغتاظا : « من خيراتنا التي نهبوها ، وما يزالون .. من لحم أكتاف فلاحينا الذين تركوا نهبا للفقر والجهل والمرض ، بينما ينعم الاستعماريون وعملاؤهم بثمرات جهودهم » .

كان حنقها يتضخم مع كل كلمة ، الى ان بلغ ذروته حين قالت :

ـ سياسة .. سياسة .. سياسة . لعنة الله عليـــه وعـــلى السياسة معه !

ردت خصلة شعر تدلت على جبينها ، وقالت بهدوء :

ـ عيب أحمد الكبير ، على كل حال ، انه أعمى !.. لا بل وأبكم، وقليل الذوق ايضا !... اني لا اذكر انه أطرى جمالي وأناقتي قط ، سوى تلك المرة اليتيمة ألتي أبدى فيهـــا اعجابه بفستاني المشجر . ويا لي من غبية ، اذ تعمدت أن ألبسه في اكثر من مناسبة ، ممنيـة النفس بأن تفك عقدة لسانه .. أظن ان اعجابه كان لمجرد انالفستان مشجر ، مما يذكره بجمال الطبيعة في الريف ، الذي طالما شنف اذني بالتغني به !.. اما هذا الشعر .. هذا السحر .. كل هذه الفتنـة ، فلا يراها . انه يرى كل شيء من خلال نظرته للريف والسيـــاسة والفلاحين ، لعنة الله عليهم !

استلقت على سريرها ، مستأنفة موجة الغيظ على أحمد :

ـ لقد عرف ، حقا ، كيف يختار مهنته ، ليعيش حياته كلها أعفر أغبر ، بين الابقار والاغنام ، والقاذورات ، والقذرين !.. صحيـــح ، « ان الطيور على أشكالها تقع » . ما كان أجدره بأن يخلف « العـــم عثمان » في رعاية الاغنام !

هنا ، هزت كتفيها ، معلنة قبل أن تغط في نوم عميق :

ـ ليذهب هو والفلاحون والسياسة الى جهنم ، وبئسالمصير !

(٣)

وفي غفلة من الزمن ، في ليلة تشرينية مشؤومة ، وقعتالكارثة.. وصحا الناس من نومهم ، على انبائها المفزعة !.. ذهلوا !.. لم يصدقوا مـا يسمعون ...

وجاءت ردود الفعل عنيفة ، جهنمية . لقـــد استنفر الاعداء قواتهم ، وجند الاستعمار عملاءه ، وحشـــدت كافة القوى الخبيثة ، المتآمرة ، لحماية الانفصال وتكريسه .. ونشطت ، في وضح النهار ، خفافيش الظلام !

اذا دهم المرء خطر جسيم ، فانه يفزع ــ بالغريزة ــ الى مكـامن قوته . فلم تكد تمضي ساعات قليلة ، حتى كان أهالي البلدة ، وجموع غفيرة من الفلاحين الذين تقاطروا من كلحدب وصوب ، يحيطون بمقـر الجمعية التعاونية ، فكأن هذه قد غدت ، فجاة ، الكعبة الجديدة .. وكأن احمد بينهم ، النبي الجديد . كان يغلي غيظا وحقدا ، لا يجـد ما يرد به على أسئلة السائلين ، عما حدث ، وكيف حدث ، غير عبارة يرددها :

ـ خير أن شاء الله .. خير باذن الله !

تتالت البـــلاغات العسكرية : فرضت الاحكام العرفية ، وحرم التظاهـر ، وأقفلت الحدود والمطارات ، وقطـــع الاتصال بالخارج ... وتأكد الجميع ان الطامة الكبرى غدت حقيقـــة واقعة !! عندئذ ، وقف أحمد منددا بالمتآمرين ، معلنا العصيان :

ـ ان الذين قاموا بهذه الحركة زمرة من المأجورين والمغامرين . لقد هالهم وأسيادهم ان يخطو شعبنا خطوته الاولى على طريق العـــزة والكرامة . انهم يحلمون بأن تعود عقـــارب الساعة الى الوراء .. يريدون ان يبقى الاستعباد ، والاستغلال ، وكبت الحريات قيودا تكبلنا الى الابد .. يريدون ان يسلبوكم مكاسبكم الشعبية الباهرة . لقـــد أعمى النور أبصارهم وقلوبهم ، فظنوا أنهم يستطيعون ان ينشروا حجب الظلام علينا جميعا . ألا خسئوا .. هيهات ، هيهات .. فان من دون ذلك حز الحلاقيم ...

طافت المظاهرة بشوارع البلدة ، هاتفـــة بالشعارات القومية ، معلنة تمسكها بالوحدة ، واستعدادها لافتدائها بالارواح . وسرعـــان ما كانت القوات العسكرية ، بحـــرابها المشرعة ، تفرق المتظاهرين ، بالعنف ، وتعتقل نفرا غفيرا منهم ، من بينهم احمد ، الذي اصيبجسمه بكدمات مؤلمة ، وشقت وجنته ، وتحطم عدد من أسنانه ، اذ انهال عليه الجنود بهراواتهم وكعوب بنادقهم .

***

سيق أحمد وصحبه الى السجن ، ليبدأ التحقيق معهم فـورا . فقد اقتضت ضرورة الحرب النفسية تقديم عدد من المعتقلين للمحاكمة، بأسرع وقت ممكن ، واصدار أحكام « رادعة » عليهم .

سأل المحقق أحمد :

ـ اسمك ؟

ـ أحمد عبد الخالق جبران .

ـ عمرك ؟

ـ حوالي ثلاثين سنة .

ـ عمرك بالضبط ؟

ـ لا أدري .. فلم يأبه لتسجيل ولادتي أحد .

ـ وظيفتك ؟

ـ طبيب بيطري بالجمعية التعاونية

هز المحقق رأسه ، قائلا :

ـ هه !.. طبيب بيطري .. انسان مثقف .. وتخرج على النظام بهذا الشكل المزري ؟!

ـ أي نظام ؟.. أتسمي هذا نظاما ؟!.. انه ـ في نظري ، عـلى الاقل ـ صميم الفوضى .. انه خيانة عظمى !

ـ اخرس .

أومأ الى كاتب التحقيق برأسه ـ مذ ان كانت يداه معقودتيـن خلف ظهره ـ قائلا :

ـ لا تسجل ذلك !

جلس خلف طاولته ، واخذ يعبث ببعض الاوراق . عاد يسأل :

ـ الى أي حزب تنتمي ؟.. وكم عدد أفراد الخلية التي تتزعمها ؟ وأين تحتفظ بالسجلات ؟

ـ اني لا أنتمي الى أي حزب . وبالتالي ، ليست ثمة خلية ولا سجلات .

هز المحقق رأسه ، ساخرا :

ـ أبدا ؟!

ـ أبدا .

مد يده مهددا بسبابته :

ـ على هامان يا فرعون ؟!.. تريدني أن أصدق هذا ؟!.. كيف استطعت ، اذن ، أن تجمع كل هؤلاء الكلاب ، ان لم يكن أعوانك قد استنفروهم ؟

قال أحمد ، بحدة ، وقد بدأ يلمس المأزق الذي ينوي المحقق أن يضعه فيه :

ـ لقد جاءوا من تلقاء أنفسهم .. جاءوا ليحموا مكاسبهم من عبث العابثين .. جاءوا لكي يفرضوا ارادتهم ، ويؤكدوا حقهم الطبيعي في الحرية والحياة الكريمة .. جاءوا ليرسوا قواعد الوحدة التي تتعرض ، الان ، لهذه المحنة .

اخرس .. والا بصقت في وجهك !.. هكذا !.. من تلقاء أنفسهم ! هؤلاء الكلاب !.. لماذا لم يفعلوا ذلك من قبل ؟.. لسوف نلقنك وأمثالك من مثيري الشغب ، درسا قاسيا .

فقاطعه أحمد ، وقد تملكه الغضب :

ـ أولا ، ليس صحيحا انهم لم يفعلوا ذلك من قبل . ان شعبنا ما خنع يوما ، ولا استكان لظالم مستبد .. والتاريخ شاهد على ذلك . وثانيا ، ان التهديد والوعيد لا يرعبني .. كما لا يخيفني البطش ، اذا لجأتم اليه . وثالثا ، لست انا مثير شغب ـ كما تقول . فاذا كانت تأدية الواجب شغبا ، فمرحبا أيها الشغب !

ـ واجبك ان تطيع السلطة القائمة .

سأله احمد باستغراب :

ـ حتى وان كانت خائنة ؟!

نفد صبر المحقق فجأة ، فصاح فيه :

ـ سنعلمك ، يا ابن الكلب ، من الخائن .

بذل احمد جهدا كبيرا للسيطرة على ثورته . سوى ان لهجته بقيت حادة . قال :

ـ اسمع !.. ليس لك أي حق في اطلاق الالقاب جزافا علي . تريد ان تحقق معي .. تفضل حقق . أما ان تشتمني ، وتحاول اهانتي ، فلا !.. انني طبيب .. ويجب عليك وعلى غيرك احترامي . ثم يجب ألا تنسى حقي ، كمواطن ، في المعاملة الحسنة .

نهض المحقق ، ودار حول الكرسي الذي يجلس عليه أحمد ، ثم قال :

ـ ليس لامثالك أي حق علينا . حقنا أن نقطع السنتكم !.. أما كونك طبيبا ...

وصمت لبرهة ، ثم تابع بلهجة تقطر سخرية :

ـ فلا تنس أن حضرتك طبيب بيطري !.. يعني دكتور حمير

وأطلق ضحكة فاجرة ، مستطردا :

ـ كان عليك أن تبقى كذلك ، ولا تدس انفك في السياسة . انني أنصحك بالاعتراف بأسماء عصابتك ، والا فليس هنالك من تلوم سوى نفسك .

قال أحمد ، باصرار وبشيء من اليأس :

ـ في مثل هذه الحالة ، افعلوا بي ما تشاؤون .. فليس لدي ما أقوله ، ما دمت ترفض أن تقتنع بما أقول .

***

عقدت المحكمة العسكرية جلستها .. ومثل أحمد أمامها ، محمولا على نقالة ، وضعها ممرضان على طاولة مستطيلة ، أحضرت خصيصا لذلك . كان واهنا ، يعلو ، ما لم تغط الضمائد البيضاء من وجهه ، شحوب الاموات .

وقف المدعي العام العسكري يتلو ـ بشكل مسرحي ـ حيثيات الاتهام .. ثم قرأ « اعترافات » المتهم . وبحركة مسرحية أخرى ، قدم ملف القضية لرئيس المحكمة ، الذي ظهر ـ كالطاووس ـ في بزته العسكرية المحلاة بالاوسمة والنياشين ، والذي سأل احمد بوقار مصطنع :

ـ هل هذه اعترافاتك ؟

جاء صوت أحمد بطيئا ، لا يكاد يسمع :

ـ لم أعترف بشيء !!

ـ وهذا التوقيع .. ألم توقعه بخط يدك ؟

ارتفع صوت المتهم قليلا ، وان كان ما يزال بطيئا :

ـ لقد انتزعوه مني تحت التعذيب .. تحت هذا الذي تراه بأم عينك .

ـ ومن فعل بك هذا ؟

ـ زبانيتك !

وفي اليوم التالي ، صدرت الصحف المأجورة في اكثر من قطر عربي ، تردد كلها نغمة واحدة :

« احمد عبد الخالق جبران يدلي باعترافات رهيبة » !

« اكتشاف شبكة سياسية ضخمة في سوريا » !

« سجلات رهيبة تكشف النقاب عن شبكة مرعبة » !

« طبيب بيطري يتزعم شبكة سياسية استطاعت ان تتسلل بين صفوف العمال والفلاحين » !

« المتهم يزعم ان اعترافاته اخذت تحت التعذيب والسلطات تؤكد ان اصاباته نجمت عن اشتباكه مع الجنود في معركة عند تفريق المتظاهرين » !

« احكام بالاعدام والاشغال الشاقة على عدد من المتآمرين » !

وكتب رئيس تحرير احدى هذه الصحف مقالا افتتاحيا عن « الطب البيطري والسياسة » !

ناردن ـ هولندا

حسن بكر

اخر منشورات دار الاداب

			ق. ل
●	اعياد (قصص)	لعبد الله نيازي	٢٥٠
●	لا بحر في بيروت ((	لغادة السمان	٢٥٠
●	الظمأ والينبوع ((	لفاضل السباعي	٢٥٠
●	حتى يبقى العشب اخضر	لاديب نحوي	٢٠٠
●	ثورة الفقراء	لرجاء النقاش	٢٠٠
●	سلطنة الظلام في مسقط وعمان	لعوني مصطفى	١٥٠
●	كامو والتمرد	ترجمة سهيل ادريس	١٥٠
●	قصص كامو	ترجمة عايدة ادريس	٤٠٠
●	البلد البعيد الذي تحب (قصص)	لديزي الامير	٢٠٠